الفصل الرابع

المتشابه في القرآن والكون

معضلة الشر

يقول الله عَزَّوَجَلَّ في مُحكم التنزيل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [آل عمران: 7].

شاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بمشيئته الكونية القدرية أن يوجد المُتشابه في كتاب الله المسطور - القرآن الكريم - وأن يوجد المتشابه أيضًا في كتاب الله المنظور - الكون والخلق -.

فما معنى الحروف المُقطعة في أوائل السور في كتاب الله المسطور، وما معنى ولادة أطفال مُشوهة في كتاب الله المنظور؟

وما معنى البلاء والزلازل، وما معنى المجاعات والحروب؟

فلو ظننت أن الله من المفترض أن يأتي بالمحكم بدون أي متشابه فما عرفت مقصد الرسالة ولا غاية الاختبار ولا معنى استخدام العقل الذي هو مناط تكليفك ﴿ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: 10].

بل إن هذا الظن ينم عن عدم استيعابنا للقضية التكليفية الكبرى.

فقوام الدين كله على وجود نسبة متشابه ليميز الله الخبيث من الطيب!

حتى يتبع الفاجر الشبهة ويترك الحق الظاهر.

فالمتشابه موجود وشاء الله وجوده.... امتحانًا واختبارًا.

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: 35].

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [الملك: 2].

وبالتالي فالخير والشر موجودان لأننا في دار امتحان، وابتلاء، وليست الدنيا دار قرارٍ، ولا خلود.

والجميع يتفقون على وجود الشر في هذا العالم، وليس ثمة مبرر لوجوده إلا في الإطار الديني.

ولو أننا افترضنا أن الحياة جائت صدفة، والخلق جاء بمحض الطبيعة فساعتها وطبقًا لقوانين الاحتمالات فإن نشأة أبسط كائن على وجه الأرض تحتاج إلى مليارت الأكوان بحجم كوننا، لتمتليء بالكائنات المشوهة والوسيطة من أجل إنتاج كائن واحد سليم، فطبقًا لنظرية الحد الأدنى من الجينات Minimum gene set concept لا يُمكن لكائن حي مهما كانت بساطته أن ينزل إلى أقل من 200 جينة وفي عدد 6 يناير 2006 نشرت مجلة الطبيعة الشهيرة Nature أنه «لا يمكن أن نتجاوز حاجز 397 جين»، فإنتاج الطاقة وحدة يتطلب 6 جينات كحد أدنى، وإذا نقص جين واحد فالخلية لن تُزوَّد بالطاقة، وهكذا كل وظيفة أساسية لها حد أدنى من الجينات، وقد وجد العلماء أن الميكوبلازما Mycoplasma - وهي أدق كائن حي موجود على وجه الأرض على الإطلاق - لديه 468 جين، والجينة الواحدة تحتوي على بروتينات مُركبة قد تصل من 1000 إلى 10000 حمض أميني.

وبإحصائية بسيطة فإنه طبقًا لنظرية الحد الأدنى من الجينات فنحن بحاجة إلى مصفوفة من القواعد النيتروجينية تقترب من 400.000 قاعدة من أجل إنتاج كائن واحد بسيط جدًّا سليم، وهذا احتمالية نشأته 10 أس 200.000، أي أن الكائنات المشوهة ستملأ مليارات المليارات المليارت من الأكوان للخروج بكائن واحد سليم، حيث إن عدد الذرات في كوننا كله هي 10 أس 80 ذرة.

فما بالنا والشذوذ والتشوه ليسا إلا نوادر، ولا يقعان في الحُسبان، وشاء الله وجوده لأن الدنيا دار اختبار وابتلاء، والذين في قلوبهم زيغ سيتبعون هذا التشوه ويتشككون من خلاله، ويجعلونه أصلًا في كفرهم وإلحادهم.

يقول ابن الوزير اليماني: «فسبب الشك والكفر: هو النظر في المتشابهات، التي لم يحط البشر بها علمًا، ولا عرفوا تأويلها»[1].

إذن الإطار الديني هو الوحيد الذي يُقدم التفسير لمعضلة الشر.

لكن السؤال.. لماذا الإنسان يستوعب وجود الشر، ووجود التشوه، ووجود المتشابه؟؟

الشر أصلا غير مُستوعب وغير مُدرك إذ لو كان الإنسان ابن الطبيعة أو ابن المادة وتجري عليه قوانين الطبيعة الحتمية، فلن يدرك وجود الشر ولن يستوعب ماهية الشر ولا معنى كلمة شر، فهل تُدرك أكثر الحيوانات تطورًا - طبقا للداروينية - معضلة الشر؟.. . فاستيعاب الشر يعني أننا لسنا أبناء هذا العالم، وأننا نبحث عن عالم كلي الخير وفي هذا الحُجة الأولى والأقوى للدين..

إذن الشر، والمتشابه هما أكبر دليل على أننا لسنـا أبناء هذا العالم.

وأن المقدمة الدينية هي الوحيدة التي تملك التفسير والمعنى والقيمة!

لقد قضت الحِكمة الإلهية أن يُختبر الإنسان فيما هو دون ذكائه الفطري بكثير ومع ذلك فشل في الاختبار خلقٌ كثير ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: 10].

فصل المقال في الناسخ والمنسوخ

عندما أمر الله عَزَّوَجَلَّ خليله إبراهيم بذبح ابنه، وقبل أن تقطع السكين رقبة الغُلام، نسخ الله الأمر ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: 107]، والحِكمة من ذلك معلومة بداهةً وهي تخلية قلب إبراهيم لله عَزَّوَجَلَّ، وبيان استحقاقه للقب الخليل، وامتثاله للأمر الإلهي!

وعندما أنزل الله عَزَّوَجَلَّ الشرائع ونسخها بالإسلام، وكان الإسلام أعظم الشرائع وأكملها وأتمها بناءًا ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: 106]، كما قال الزركشي في تفسير الآية، كانت حكمة النسخ معلومةً في ذلك كله.

فحِكمة النسخ دقيقة فاصلة، فالأحكام الشرعية تأتي على قدر عقول الناس واستيعابهم، والإسلام هو اللبنة التي أكملت الشرائع كما قال الرسول ﷺ: **«وكُنت أنا تلك اللبنة»**.

(1) العواصم: 1/ 214.

وداخل الإسلام جاء النسخ بداهةً تبعًا لحالة المُكلفين وقدرتهم، فتمَّ تحريم الخمر على مراحل ثلاث، ونُسخت الصلاة من خمسين إلى خمس، ونُسخت القبلة من بيت المُقدس إلى البيت الحرام.

فلا أحد يستطيع أن يُنكر النسخ أو أن يفترض عدم وجوده!

لكن نأتي للنقطة المحورية في بحثنا وهي هل جاء في كتاب الله آيات منسوخة؟

بمعنى أنها بقيت تلاوةً ونُسخت حُكمًا!

صراحةً كُل الآيات التي ذُكر فيها أنها منسوخة إنما تُثبت حُكمًا شرعيًّا على المُكلفين في حالة مُعينة، والآيات التي قيل أنها ناسخة تُثبت حُكمًا شرعيًّا آخر، عند تغيير الحالة الأولى إلى حالةٍ أُخرى، و إذا رجعت الحالة الأولى رجع معها الحُكم المُنزل بإزائها.

وسنذكر بعض الأمثلة لمزيد إيضاح:

1) آية الوصية للوالدين ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ [البقرة: 181]، قيل: نُسخت بآيات المواريث وحديث لا وصية لوارث، لكن تبقى الآية معمولًا بها، إذ يجوز الوصية في حدود الثلث بل وأكثر من ذلك إذا وافق الورثة، ويجوز أن يكون الحث للوصية للوالدين إذا لم يرثا وكذلك الأقربين، في حال اختلاف الدين أو قتل الموروث مثلاً.

2) أيضًا في أحكام القتال ﴿إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ ﴾ [الأنفال: 65] قيل نُسخت بـ﴿ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ ﴾ [الأنفال: 66] سورة الأنفال، وهذا الحكم تخفيف لا نسخ كما ذكره القرطبي في تفسيره.

3) آية الصدقة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ [المجادلة: 12]، قيل نُسخت بـ﴿ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [المجادلة: 13]، لكن الأمر في الآية الأولى للندب، لا للوجوب بقرينة قوله فإن لم تجدوا، وفي الآية الثانية تخيير!

والأمثلة كثيرة بنفس المعنى، فالوارد في القرآن لا ينسخ بعضه بعضًا نسخًا كُليًّا!

لكن قد ينسخ القرآن ما يَثبت في السُّنة باعتباره تدرجًا في التشريع، كما أن السُّنة تنسخ السُّنة لنفس المعنى!

إذن لا يوجد النسخ الكامل في القرآن بمعنى رفع الحُكم كُليًّا مع بقاء التلاوة!، فالقرآن صالحٌ لكل زمانٍ ومكان، ويخاطب جميع البشر في كل الأحوال إلى يوم القيامة، وهو معجزة الرسالة الخاتمة، وعليه فلابد أن تدل آياته كلها على أحكام شرعية، تتناسب مع الأحوال المُختلفة، حتى يُحقق الشمول والمرونة التي تستلزمها خاتمية الرسالة المحمدية.

لكن هل يوجد نسخ للتلاوة مع بقاء الحُكم، أي نسخ الآية القرآنية ورفعها من المصحف، مع بقاء حُكمها؟

استدل الجمهور على جواز نسخ التلاوة دون الحُكم بالعقل والنقل، أما العقل: فإن نسخ التلاوة دون الحُكم لا يترتب على فرض وقوعه مُحال، وكل ما كان كذلك كان جائزًا، فإذا أضفنا إلى ذلك رعاية المصالح في التشريع فهو حتمًا ذو فائدة و إن لم تظهر جليةً في وقتها!

أما الدليل النقلي: ما روي عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه قال: لولا أن يقول الناس زاد عمر في القرآن لكتبت آية الرجم بيدي «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالًا من الله، والله عزيز حكيم». فإنا قد قرأناها.

لكن هناك نقطة هامة جدًّا؛ إذ كثرت الأحاديث في هذا الباب فظن الظَّان أن هناك الكثير من الآيات التي رُفعت، وقد تعرَّض العلامة الغُماري لجميع هذه الأحاديث بالنقد والرد مستخدمًا الصناعة الحديثية، وقد تقرر في علم الأُصول أن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر، وما لم يتواتر لا يكون قرآنًا، والكلمات التي قيل بقرآنيتها ليست بمتواترة، بل هي شاذة والشاذ ليس بقرآن ولا تجوز تلاوته، وأغلبها لا يصح منه شيء بموجب الصناعة الحديثية.

والله أعلم!

وألفاظ القرآن وآياته بالنسبة إلى المُكلفين سواء، لكن الأحكام تتفاوت فالحكم السهل

خيرٌ للمكلف من الحكم الصعب وما كان خفيفًا فخيريته بسهولته وإن كان شديدًا فخيريته بكثرة ثوابه ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ﴾ [البقرة: 106].

وآية السيف مثلًا لم تنسخ آيات التخفيف بل هي من باب المُنسأ ﴿أَوۡ نُنسِهَا﴾، فكل ما ورد يجب امتثاله في وقتِ ما لعلة توجب ذلك الحُكم، ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حُكم آخر وهذا ليس بالنسخ الكامل، فالنسخ الكامل هو الإزالة بحيث لا يجوز امتثاله أبدًا، وهذا لا يوجد في كتاب الله منه شيء!

والخلاصة: فالنسخ يراعي طبيعة البشر القاصرة، وقدرتهم النسبية على تحمل أحكام الشريعة، فجاءت الشرائع بقدر طاقات البشر وبقدر طبيعتهم، ثم جائت الشريعة الأخيرة الخاتمة كاملة مكملة مهيمنة على ما قبلها من الشرائع، أما عند الله فليس هناك في كل ذلك نسخ أصلًا لعلمه أن تلك الأحكام والشرائع ستُنسخ!

فالنسخ في أصله رحمة من الله بعباده بقدر طاقتهم وسعة احتمالهم وتقبلهم الأمر الإلهي بالتدرج وبالسنن ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 106].

لماذا نزل القرآن بلغة العرب؟

اللغة العربية من أكمل اللغات ما عرفها التاريخ إلا كاملة - كما يقول الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله في بعض كتبه- حتى تعجب من ذلك أرنست رينان، وهي أوسع اللغات، وفي قاموس المحيط ستون ألف مادة يتولد منها قرابة سبعة ملايين كلمة، بينما المعاجم الإنجليزية بها مئات الآلاف من المواد؛ لأنها كلها كلمات لقيطة من لغات مختلفة يصعب التوليد منها فتظهر مواد جديدة على غير قاعدة.

ولا أحد يعرف مراحل نمو العربية بالطريقة التي تستطيع بها أن ترصد مراحل نمو بقية لغات العالم، فالعربية أنى بحثت عنها في أي تاريخ وجدتها كاملة بينما الإنجليزية مثلًا التي كان يكتب بها شكسبير منذ أربعة قرون لا تتجاوز ثلث الإنجليزية المستخدمة اليوم.

وتاريخ اللغة العربية كما يقول د. منقذ السقار حفظه الله في بعض مقالاته قريبٌ من 8

آلاف سنة، بينما العبرية 4 آلاف سنة - والقديم هو الأب والأصل-، واللغة العربية لغة ثرية بها ستون ألف مادة كما قلنا، بينما العبرية 2500، واللاتينية 700 جذر لغوي!

والعبرية 19 حرف بينما العربية 28 حرف.

اللغة العربية هي لغة من المستوى الأول، بينما العبرية سلالة آرامية والآرامية مستوًى ثاني، والآرامية مُشتقة من اللغة العربية، وعندنا مخطوط سيناوي عمره 4 آلاف سنة وكان باللغة العربية.

واللغة العربية أفضل اللغات وأكمل اللغات وأثرى اللغات، أانظر مثلًا لكلمة أسد لها كم لفظة في لغات العرب؟

(الأسد- الغضنفر- الليث- السبع- القصورة- الضرغام- الضيغم،...) بينما في اللغات المعاصرة لن تجد لكلمة الأسد أكثر من اسمين كحدٍّ أقصى، مع أن الأسد ليس من حيوانات الصحراء ولا البادية.

اللغة العربية غنية في الإشتقاق، فمثلًا طويل tall، طويل طال يطول ذو الطول مستطيل طائل وطائلة.. ما لا نهاية، بينما بالإنجليزية tall ليس لها اشتقاق، فهي لغات فقيرة جدًّا في المنحى البلاغي.

أيضًا في الإنجليزية جيد good ليس لها إلا goodness، بينما في العربية جيد أجاد يجيد إجادة جودة جياد جود جواد، وهكذا.

ومن المُميَّز في اللغة العربية أنها تختص بقِصر الجُملة مع الضبط والإيقاع البلاغي والرصانة في آنٍ واحد، فمثلًا كلمة «أنُلزمكومها» تُترجم بالإنجليزية إلى 7 كلمات Shall we compel you to accept it

لن أذهب I shall not go

- وإذا رجعت إلى ترجمة جوجل، ستجد في الغالبية الساحقة الترجمة العربية نصف حجم المحتوى الإنجليزي تقريبًا.

فأسقينا كموه، لفظة واحدة بها حرف عطف، وفعل وفاعل ومفعول أول ومفعول ثانٍ.

وتتميز اللغة العربية بذاتية الحرف ورمزيته، فقد يمثل الحرف الواحد كلمة كاملة مثل: عِ، فِ، قِ.

والحرف له رمزية في اللغة العربية ويمكن من حرفٍ واحد أن تفهم مراد صاحبك وهذا غير موجود في لغةٍ أخرى.

فاللغة العربية هي وعاء للكلمة الإلهية ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ [الزمر: 28]، فكمالات اللغة سمحت لها استيعاب القرآن[1].

لكن هل في القرآن شيءٌ من أشعار العرب القدامى ونعني بذلك امرؤ القيس، وأُمية بن أبي الصلت؟

شِعر أمرؤ القيس المشابه للقرآن هو شِعر منحول من زمن العباسيين، حين كانوا ينحلون الشعر وينسبونه لفطاحلة الشعر العربي، بل إن طه حسين تجاوز الحدود فقال: إن كل شعر الجاهلية منحول، ولكن المُدقق يعرف المنحول من غير المنحول، فشِعر امرؤ القيس معروف بالبداوة والألفاظ الجذلة، أما الشِّعر المنسوب له والمشابه لآيات سورة القمر في أربع مواضع فهو كلام ليِّن حضري سهل لا يُشبه بحال شعر امرؤ القيس!

أما شعر أُمية بن أبي الصلت فقد أدرك الإسلام وذهب للطائف أثناء غزوة بدر، وقال كلمته المشهورة: «إني أعلم أن ما يقوله محمدٌ حقًّا»، والشعر المشابه للقرآن من قياسه هو على القرآن لا العكس؛ لأنه قاله في الفترة المدنية بينما الآيات المشابهة مكية!

ثم كيف يُفوِّت الكفار فطاحلة الشعر وموسوعته المتنقلة في زمن النبي ﷺ هذه القضية، دون تهييج الدنيا بشأنها، ودون اعتبارها المسمار الذي يُدق في نعش الإسلام، إن تذاكي الكهنة الملحدين المعاصرين هو غباء معرفي، وكسل مطالعة، وخُبث طويّة!

هل انبثق العقل من مادة كما يزعم الملحد؟

إذا انبثق العقل من المادة، دون استمداد من خالقٍ مُطلق، كيف نثق في أحكامه؟

(1) https://www.youtube.com/watch?v=HQZsqCuDVHo

وكيف يجعلنا نثق في مفاهيمه البديهية؟

ولو كان العقل نتاجًا مباشرًا للمادة ونتاجًا مباشرًا للمخ، لتبنى جميع البشر رأيًا واحدًا في كل قضية، فلو أضفنا حامض إلى قاعدي فالنتيجة ملح وماء، مهما تكررت التجربة أو تغيرت الظروف المحيطة!

فالعقل المادي الأداتي الحتمي، تختفي عنده النظرة الشخصية المستقلة، ويختفي عنده التميز الذي هو السمة الفريدة للعقل، وتختفي عنده الذات الإنسانية، ثم يختفي الإنسان!

إن العلماء والبسطاء والمؤمنون والملحدون ينفقون أعمارهم أملًا في أن يتركوا بصمةً تُخلد ذكراهم، مع أن هذه مفارقة كبيرة، فالموت إذا كان يعني العدم فلماذا يُصر الملحد على ترك البصمة؟ لماذا يفترض العقل تصور ما ورائي بعد فناء المادة وبالتالي فناؤه، يحرص على ترك بصمة فيه؟

إن العقل ضيف جديد تمامًا على الكون، إنه مُعطى التكليف ومعنى الوجود وغاية الخلق ومُفردة من مفردات الروح، وتبرير ترك البصمة!

إن أذكى الحيوانات على الإطلاق الشمبانزي، لو وقف أمام شجرة تهزها الريح لتسقط له الثمرة مليون سنة لن يأتي في ذهنه أن يهز الشجرة يومًا ما ليسقط هو بنفسه الثمرة، إن المخ عند القرد مادي لا يُعطي مفهوم متجاوز أو معنىً أو قيمةً للأداء أو العمل، والتحليل لديه أُحادي!

إن أمخاخنا وأمخاخ جميع الكائنات متطابقة على المستوى الكيميائي والكهربائي، وأمخاخ الكثير من الثدييات أكبر من مخ الإنسان بكثير ومخ الحوت الأزرق أكبر من مخ الإنسان خمس مرات، ومخ الفأر بالنسبة إلى جسمه يبلغ خمس أضعاف الخاص بالإنسان، والتعقيد في الوصلات العصبية مهما اشتد فلن ينقل النبضة العصبية الكهروكيميائية إلى نبضة أخلاقية أو قيمية أو معرفية، إن العقل شيء لا علاقة له بحجم المخ ولا كثافة الوصلات العصبية، إنه مُعطى إلهي ليتميز به الإنسان المُكلف!

ولذا فقد أثبت د. روجر سبيري Roger Sperry الحائز على نوبل في وظائف المخ أن الوظائف العقلية لا علاقة لها من قريب أو بعيد بالمخ المادي وهي فقط قد تستعمله كآلة.

يقول السير جون إكلز John C. Eccles الحاصل على نوبل في الطب: «أجدني مضطرًّا إلى القول بطبيعة غير مادية لذاتي وعقلي، طبيعة تتفق مع ما يسمونه الروح».

وقد وضع جون إكلز مع فيلسوف العلوم الأشهر كارل بوبر Karl Popper، كتاب يشي عنوانه بأبعاد القضية وعنوان الكتاب:

(«الذات والمخ التابع لها The Self and its Brain») [1].

الرد على شبهة - أُضحوكة - مصمم ذكي من كونٍ آخر، شبهة اليوفو UFO

تلك الشبهة التي يروجها كهنة المعاطف البيضاء، والتي تتلخص في أن أحد الكائنات الذكية يزور كوكبنا وربما كان مصدر خلقنا!

سأل الإعلامي الأمريكي بين شتاين Ben Stein الملحد الشهير ريتشارد داوكينز Richard Dawkins عما إذا كان يرى مانعًا من أن يكون أصل الخلية الحية الأُولى تصميمًا ذكيًّا من عمل بعض كائنات اليوفو UFO التي زارت الأرض في زمانٍ سحيق، فقرر داوكينز أنه لا يرى ما يمنع ذلك، بل إنها تعد- على حد قوله- جديرة بالاهتمام!

لهذا لم يجد شتاين إلا أن عقَّب على جواب داوكينز بتلقائيةٍ وفطريةٍ تامة قائلاً: «إذن هو لا مانع عنده من قبول فكرة التصميم الذكي عموماً، وإنما يعترض على نسبتها إلى الخالق تحديداً!» [2].

إن افتراض كائنات ذكية، أو UFO أو أكوان أُخرى، هذا الافتراض يفتح تسلسلًا - مَن الذي خلق تلك الكائنات الذكية؟ وهكذا - ولا يجيب عن السؤال!

ثم كيف لصاحب افتراض كهذا أن يَعيب على الجواب الديني، بل إن الجواب الديني أكثر منطقية وتناسقًا مع نفسه، ويمتلك دعمًا نقليًّا مباشرًا - النص المُقدس-، ويمتلك مستند عدم

(1) بعض الفقرات من كتاب رحلة عقل، د. عمرو شريف، مكتبة الشروق الدولية، الرد على شبهة - أُضحوكة - مُصمِّم ذكي من كونٍ آخر، شبهة اليوفو (ufo).

(2) آلة الموحدين لكشف خرافات الطبيعيين.. لأستاذنا أبو الفداء ابن مسعود، دار الإمام مسلم.. ص 365.
فيديو اللقاء على هذا الرابط: http://www.youtube.com/watch?v=9M_ZF8r5e7w

المعارِض- حيث لم تترك لنا تلك الكائنات تلك الدعوى العريضة، التي تُثبت قيامها بذلك -، أيضًا الجواب الديني أكثر عقلانية لعدم وجود التسلسل اللانهائي بداخله والذي هو مستحيل عقلاً، فالتسلسل اللانهائي تضطر فرضية اليوفو للتسليم به أو العودة للقول بالخالق الأبدي المستقل عن حدود الزمان والمكان.

فالجواب الديني يقدِّم للعاقل المُنصف ما لا تُقدمه الفرضيات الإلحادية الهاربة من فخ المعايرة الدقيقة للكون Fine tuning، والمعايرة الدقيقة لحظة الخلق، والتشفير في الكائنات الحية Coding، وهي أمور تدعو للتسليم بخالق واعٍ حكيمٍ قادر.

ففرضية مُصمم ذكي من كونٍ آخر أو UFO أو غرباء زاروا الأرض، هذا ليس جوابًا في حد ذاته و إنما هو إرجاء المطلب المعرفي الذي يرومه السائل إلى درجة من درجات تسلسل لا نهائي لا يوصلنا إلى جواب البتة!

فما فعل المُلحد بهذا في الحقيقة إلا أن أضاف في الطريق إلى إثبات العلة الأُولى الفاعلة- الله -، افتراضًا متهافتًا لعلةٍ وسيطة لا يجد العقلاء من القرائن ما يوحي- ولو من بعيد - بوجودها أصلاً!

لكنه الهروب من التكليف الديني إلى دين بلا قيود ولا إلزامات، إنه دين اليوفو دين الملاحدة الجديد!

إن مشكلة الملاحدة مشكلة نفسية بالأساس، تتمثل في كراهيتهم الدخول في مقتضيات إثبات ذلك الخالق الغيبي، التي هي وجوب الخضوع لأمره ونهيه وتألهه وعبادته!

ثم إن من مسلمات مُعطياتنا عن حدث الخلق الأول سواءًا للكون أو الحياة؛ أن منظومة الخلق تلك جاءت بنواميس وقوانين كونية حتمية، فكيف يُقال: إن الغرباء الذين هم داخلون في جملة تلك النواميس وخاضعين لها، قاموا بكسر تلك النواميس والقوانين وأوجدوا عندنا حياة؟ [1].

لكن يبدو أن الإلحاد الجديد مضطرٌّ إلى التسليم بفرضيات من هذا القبيل؛ لأنها الوحيدة المتاحة في مقابل الدين!

(1) المصدر السابق، ص: 366.

لكن هذه الفرضيات لا تحل المشكلة بل ربما مع الوقت تطرح تساؤلات فلسفية أعمق، وللمرء أن يتساءل لماذا الإقدام على فرضيات غاية في الغرابة والدهشة والبُعد عن التجريب والاختبار والرصد الإمبريقي كتلك الفرضيات؟

إن هذه الفرضيات هي فقط ترحيل للمشكلة إلى حيث نكون غير موجودين وانتهى الأمر على ذلك!

ثم إن عملية إبداع مصمم بهذا الذكاء هي عملية مدهشة للغاية، وتحتاج إلى قوانين خاصة هي الأخرى، وبالتالي ربما نكتشف أن الذين افترضوا هذه الفرضيات سيجابَهون يومًا ما بإلزامات ماورائية أعظم بكثير مما لو كانوا تخلَّوا عن تلك الفكرة.. إننا ننتقل خطوة ما ورائية أعلى وأكثر عمقًا بهذه الفرضيات!

أضف إلى ذلك أن هذه الطريقة الفلسفية للهروب من المُشكلة تُناقض شفرة أوكام Occam's razor وهي شفرة فلسفية، وطبقًا لهذه الشفرة فإن أبسط التحليلات لمشكلة معقدة هي الصحيحة، وينبغي اختيار أبسط نظرية تناسب حقائق المعضلة، لكن هؤلاء الملاحدة الجدد يختارون أعقد نظرية، فخالفوا المعقول والمنظور والمأمول!

إن التسليم لله هو نهاية قصة المصير الإنساني سواءً شئنا أم أبينا، إنه الاستجابة المُثيرة للقضية الإنسانية الكُبرى.

إن الإسلام لم يأخذ اسمه من قوانينه ولا نظامه ولا مُحرماته، وإنما من شيء يشمل هذا كله ويسمو عليه - من حقيقة التسليم لله- إنه استسلام لله، والاسم إسلام!

إسقاط أُسطورة إله أسبينوزا

كان أينشتاين يؤمن في أغلب فترات حياته بإله أسبينوزا، حيث يعتقد أن قوانين الكون تؤلف سُلطة مُهيمنة على الكون، وأن الإله هو تلك القوانين وهو تلك السُّلطة المُطلقة العجيبة.

وهذه الفكرة الحلولية قام بالتأصيل لها باروخ اسبينوزا الباحث اليهودي في القرن السابع عشر واعتبر أن الجوهر هو الطبيعة والله معاً، فهو يتصور أن الطبيعة والله هما وجهان لنفس الصفحة.. وهذه الفلسفة استمدها اسبينوزا من موسى بن ميمون العلامة اليهودي القرطبي،

الذي عاش في بلاد الإسلام طيلة عمره وانتقل من قرطبة إلى القاهرة، وتأثر بالمدارس الكلامية والفلسفة الصوفية في الحلول والاتحاد.

لم يُلحد أينشتاين يومًا ما، وكان يعتبر فكرة الإلحاد فكرة سخيفة وتعود في الأصل إلى حماس الشباب في الهروب من الأدلجة الدينية، وكان يُصنف نفسه بالفيزيائي المؤمن كما جاء في رسالة العزاء التي أرسلها إلى عائلة رفيقه الإيطالي ميشيل بيسو.

لكنه في المقابل كان يرفض فكرة الإله القومي اليهودي - إله الشعب المختار الذي لا يقبل أحدا من العالم إلا الذي جاء من نسل أبوين يهوديين -، ولذا تمرَّد على ديانته اليهودية وقال كلمته الشهيرة «أؤمن بإله أسبينوزا، الذي يكشف نفسه في التناغم القانوني في كل ما هو موجود».

إذن التناغم القانوني هو شرط هذا الإله وصِفته الأصيلة التي لا يُعرف إلا بها!

ولذا اهتز أينشتاين بشدة عندما وصلته نتائج ميكانيكا الكم، لأن هذه النتائج تُفرز صخبًا لا قانونًا متناغمًا، ولذا وصف ميكانيكا الكم في خطاب له إلى صديقه ميشيل بيسو في ديسمبر عام 1925 بأنها « معادلات من صميم السحر الأسود».

وقد اعتبر أينشتاين أن ميكانيكا الكم تنسف فلسفة اسبينوزا القائمة على التناغم القانوني في الكون، وأرسل رسالة إلى صديقه ماكس بورن في 4 ديسمبر 1926 قال فيها «الله لا يلعب النرد - God doesn't play dice».

ولم يتوقف أينشتاين عند هذا الحد، بل إنه في عام 1935 بمساعدة اثنين من العلماء وهما [بوريس بودولسكي] و[ناثان روزين] Boris Podolsky and Nathan Rosen أو إختصارًا للثلاثة EPR قرر الثلاثة أن يضعوا حدًا لقفزات ميكانيكا الكم وقام الثلاثة بنشر ورقة بحث بعنوان: «هل توصيف ميكانيكا الكم للحقيقة يعتبر كاملاً؟».

Albert Einstein, Boris Podolsky, and Nathan Rosen, «Can Quantum-Mechanical Description of Physical Reality Be Considered Complete?»Physical Review 47 (1935), p. 777[1].

(1) http://en.wikipedia.org/wiki/EPR_paradox.

وفيها أوضح العلماء الثلاثة أن ميكانيك الكم تفترض أن الفوتونين الناتجين عن تحلل ذرة البوزيترونيم positronium، إذا انطلقا وسافرا وصارت المسافة بينهما حتى عشر سنوات ضوئية فإنه يمكن حصرهما بل وقياس زاوية الاستقطاب بدقة، وفي حالة أنه تم قياس زاوية الاستقطاب لكلا الفوتونين وتبين أن القياس متطابق، إذن لابد أنهما تواصلا لحظيًا حتى يعرفا أي زاوية من زوايا الاستقطاب سيتبعان، وهذا مستحيل لأنهما لو تواصلا لحظيًا بمجرد وضعهما تحت الرصد فهما إذن تواصلا بسرعة أكبر من سرعة الضوء، وبالتالي انتقلت المعلومة بينهما بسرعة أكبر من سرعة الضوء، وهذا مستحيل علميًا طبقا لنظرية النسبية الخاصة.

لذا فقد قرر أينشتاين أن نيلز بور باستنتاجاته تلك سيفتح الباب واسعًا لكل المتناقضات وأن ميكانيكا الكم بها خطأ جوهري.. فكيف يتواصل فوتونان لحظيًا؟ كيف تنتقل المعلومة بينهما بسرعة أكبر من سرعة الضوء؟

كل هذه الحرب الشعواء مِن قِبل أينشتاين مُستخدمًا أسلحة العلم للدفاع عن إله أسبينوزا..

وما أن جاء عام 1982 إلا وتبين معمليًا وتجريبيًا أن أينشتاين كان على خطأ، فقد أثبت الفيزيائي الفرنسي آلين أسبكت Alain Aspect وفريقه صحة ما ذهب إليه نيلز بور، فقد أثبتا عمليًا أن الفوتونات فعلا تستطيع لحظيًا أن تتواصل فيما بينها بغض النظر عن المسافات الفاصلة بينها هل هي عشرة أمتار أو عشر سنوات ضوئية أي أن المعلومة تسافر أسرع من الضوء.... بل سرعتها آنية لحظية[1].

ومنذ سنوات قليلة تم تأكيد الأمر بأدلة تجريبية أُخرى في مفاعل جيو 600 وفي أماكن أُخرى من العالم..فيما يعرف بمُعضلة التأثير الشبحي عن بُعد.

لكن لماذا لم يستوعب أينشتاين ميكانيك الكم - مع أن نوبل التي حصل عليها كانت في ميكانيك الكم، بل إنه هو الذي صَّك كلمة كوانتم-.. لماذا يتمرد على تلك الفيزياء الوليدة لماذا كان يحاربها حتى وفاته -مع أنه يعلم بداخله يقينًا أن كل التجارب في مصلحتها -؟

مشكلة أينشتاين كانت في عقيدته.. عقيدة إله أسبينوزا.. عقيدة الحلول والاتحاد.. عقيدة الإله الذي يحل في قوانين الطبيعة..

(1) http://en.wikipedia.org/wiki/Alain_Aspect.

لو كان أينشتاين آمن بالإله العظيم البائن من خلقه - المنفصل عن مخلوقاته - الإله الذي ليس كمثله شيء الذي يعرف كيف يخلق ويختار بين الإحتمالات، وبالتالي فهو فعليًا لا يلعب النرد، لو كان فعل ذلك لما وقع في تناقض عاش فيه طيلة عمره، ولما توقفت أبحاثه العظيمة ببزوغ فجر ميكانيك الكم ولما مات في أمريكا بعد عقودٍ من فشلٍ يتلوه فشل في مسألة التوحيد بين القوى الأربع في الطبيعة.

لقد كان [نيلز بور] - أبو ميكانيك الكم - دومًا يقول لأينشتاين «إنك لن تستطيع أن تفرض على الله كيف يتصرف في العالم». لم يتفهم أينشتاين هذه الحُجة لإيمانه العقيم بإله أسبينوزا.

فمشكلة أينشتاين الحقيقية أنه كان يفترض العالم واجبًا وقوانينه واجبة وليس احتماليًا ولذا كانت صدمته كبرى من ميكانيك الكم، ولذا كان يقول: «إنني دوما أتساءل هل كان لله اختيار آخر غير خلق هذا العالم؟».

فهو كان يرى العالم واجبًا لكن ميكانيك الكم أثبت أن العالم احتماليٌ ووجوده ممكن لا أكثر.. وهذا ينسف المنظومة الفلسفية عند أينشتاين في عقيدته بخصوص إله أسبينوزا.

ربما لو عاش أينشتاين للعام 2012 ورأى بعينه جائزة نوبل في الفيزياء تُمنح لعالمين في فيزياء الكوانتم لأبحاثهما في إمكان العالم واحتماليته لا أكثر، ربما ساعتها كان سيتراجع لكنه عاش في فترة رأى فيها بعيني رأسه النجاحات المتتالية لميكانيك الكم تجتاح العالم كله، ورأى إله أسبينوزا أسطورة تتبخر وأن العالم ليس واجبًا وإنما احتماليٌ وكان من الممكن ببساطة ألا يخلقه الله، لكن سيطرت عليه دوغما وحدة الوجود حتى وفاته!

فسبحان الله القيوم الذي إذا أراد شيئًا كان ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: 82].

المحرك الأول عند أرسطو

المُحرِّك الأول عند أرسطو، أو الإله الذي خلق الكون ثم تركه، هذه آخر مغالطات الملحد التي يستخدمها بعد فشله في كل ألاعيبه وسفسطاته الالحادية وبعد إقراراه بالمُسبِّب وتسليمه بحِكمة الصنع والمعايرة الدقيقة للوجود!

ففكرة المحرك الأول عند أرسطو، هي انتقال من إشكال الإلحاد إلى إشكال الربوبية.

وفكرة المحرك الأول أصبحت فكرة أسطورية الآن. فقد ثبت أن نظام حياتنا ووجودنا كله يعمل بطريقة تخالف القانون الثاني للثرموديناميك، وهذا قانون كوني يحكم الكون بدءًا من الذرة إلى المجرة وهذا القانون ينص على أن كل شيء في الكون يتجه نحو البرودة ونحو التفكك ونحو الانهيار، وفي لحظةٍ ما في المستقبل سيصل الكون إلى الموت الحراري thermal death of universe، لكن منظومة الحياة تسير على العكس من ذلك تمامًا فهي تسير نحو التعقيد ونحو البناء والنمو المطردين، ولذا فمنظومة الحياة تسير عكس القانون الثاني للثرموديناميك، ولذا لابد من تدخل أعلى، تدخل مباشر كل فيمتو ثانية - والفيمتو ثانية هي أقل زمن ممكن لرصد حدوث تفاعل كيميائي حيوي-، فالتدخل المباشر هو الضمان الوحيد لاستمرارية الحياة، ولولا هذا التدخل ما كان للحياة أن تخطو خطوة واحدة للأمام، بل كان على كل شيء أن يتفكك مباشرةً لا أن يتعقد وينمو.

فالله الخالق وهو الحافظ للحياة، وتستمد الحياة منه باستمرار كيانها وقيمتها فسبحان الذي أعطى كل شيء خلقه، والحمد لله رب العالمين!

هل النسبية المعرفية لها وجود؟

هل النسبية تراكم احتمالي في الذات أم تراكم وجودي؟

هل النسبية تراكم معرفي أم تراكم فيزيقي؟

هل النسبية زخم احتمالي تصوري، أم كومة مادية!؟

هل النسبية شيء قائم بالذات - شيء معرفي إبستمولوجي -، أم شيء له وجود أنطولوجي مادي!؟

هذا السؤال ينسف نسبية الأخلاق ونسبية المعرفة ونسبية المعطيات بوجهٍ عام، ويؤكد مثالية الوجود ومطلقية الأخلاق، ويثبت انهيار المنظومة الإلحادية في تفسير الظاهرة الوجودية.

لو قال الملحد أن النسبية شيء له وجود أنطولوجي مادي، قلنا إذن لا يوجد قوانين ولا

علم ولا فكر وتكون حتى هذه العبارة « النسبية شيء له وجود أنطولوجي مادي « نسبية هي الأخرى، وساعتها يسقط التمايز ولا نعرف ما هو أسفل ولا ما هو أعلى ولا ما هو كبير ولا صغير، وبداهةً هذه سفسطة لم يقل بها حتى المجانين، فالعلم له قوانينه وللحياة كينونتها المستقرة وللعقل مبادئه، ولولا هذه الأساسيات ما حدث تقدم يُذكر في حياة البشر وما وُجد بشر أساساً.!

ولو قال الملحد أن النسبية شيء له وجود معرفي إبستمولوجي فكري، قلنا هذه مصيبة أكبر من سابقتها لأنها تعني نسبية هذه العبارة أيضًا وعدم جديتها وتعني عدم جدوى الفكر أو جدوى نتائجه، وبالتالي كل أفكار البشرية لغوٌ فارغ، لكن البديهة المُركبة في البشر على العكس من ذلك تمامًا ألا وهي الاستقرار على النتائج الفكرية، ثم الانتقال منها إلى غيرها وهذا يعني وجود حقائق فكرية يمكن الوصول إليها والاستقرار عليها، ثم الانتقال منها إلى غيرها!

إذن لا يوجد شيء يُسمى نسبية في هذا الوجود المـادي ولا في الوجود الفكري الإبستمولوجي.

والذي يتخذ النسبية منهجًا له هو يعتبرها حقيقة مطلقة فوقع في التناقض الذاتي.

والاختلاف بين البشر ليس مرجعه النسبية كما يحاول أن يُصور لنا الملحد الكاهن و إنما مرجعه أن كل صنف من البشر يحرص أشد الحرص على ما يعتنقه لا أكثر.

إذن النسبية خرافة أسطورية يروجها ملحد ماكر و يصدقها ربوبي فاشل، ولا وجود لها إلا داخل افتراض جدلي يفتقد الوجود الأنطولوجي والإبستمولوجي معاً!